

الصّور الأخلاقية للابروير

بمستلم
الدكتور محمد غنيمي هلال

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الرومانتيكي «ميشليه» قائلاً : (في مقدمة الجزء الخامس عشر من كتابه : تاريخ فرنسا) : « لويس الرابع عشر يثد عالماً . فهو - مثل قصره فرساي - يطل على الغروب ... الكآبة تسيطر على كل شيء ، على المؤلفات والخواطر الخلقية فيما كان يكتبه كبار الكتاب مثل پاسكال ، وراسين ، وفينلون ، ولابروير ... أما ما كان يجهر به خطيب القوم : بوسويه ، من ضمان شامل ، فانه لم يمنع العصر من أن يشعر باستهلاك كل قواه في المسائل العتيقة » .

وقد أخذت نتائج تلك السياسة الاستبدادية تظهر متوالية منذ حوالى عام ١٦٧٨ ، في صورة أزمة سياسية في الداخل والخارج ، وأزمات دينية وخلقية وأدبية ، ثم ثورة فكرية فلسفية في أواخر العصر .

أما الأزمة السياسية فكانت وليدة غرور الملك وأطماعه في صراعه ضد هولندا وألمانيا ومع إنجلترا ، في حروب دامت قرابة ثمانى سنوات تخللتها انتصارات موقوته ، مع تكاليف وعقبات وهزائم طالما عانى منها الشعب . وزادت هذه الأزمة الشعب سخطاً ، واشتدت

يعد الكاتب لابروير - صاحب فن الصورة الأخلاقية في الأدب الفرنسى - ثمرة من أنضج ثمرات عصره فكراً وثقافة، ولكن خاصته التي انفرد بها أنه كان أكبر شاهد على عصره وأعمق ناقد له . آثر عشرة الكتب على مخالطة الناس ، ولكنه كان في عزلته أوثق صلة بعصره وبآفات عصره من جميع معاصريه ، يصف هذه الآفات في صور وأمثال تبين عن مزاج حاد ساخر ، ولكن في غير استهتار ؛ وتكشف عن فكر نافذ يبلغ - في سخطه وضيقه - أبعد مدى للإصلاح حتى ليتأخم حد الثورة ، على الرغم من سيطرة النزعة المحافظة على عصره كله ، وحتى ليذهب في جرأته إلى حدود الحملة التي لا هوادة فيها على التقاليد والآفات الطبقيّة التي كان لها شبه قداسة فيما كانوا يسمونه : العصر الذهبي أو « القرن العظيم » ، عصر لويس الرابع عشر (١٦٤٣ - ١٧١٥) - وحقاً كان ذلك العصر عظيماً في مظهره ، ولكنه كان يخفى خلف هذا المظهر الخادع آيات انحلال لازمت الدكتاتورية وعهود السلطان المظلم ، على نحو ما يصف المؤرخ الفرنسى

المصاعب المادية ، فسيطر سلطان المال على المجتمع ، وتدهورت تبعاً لذلك القيم الخلقية السليمة ، وازدادت حال الفلاحين سوءاً ، بقدر ما عظمت مكانة نبلاء الثياب ومشترى الألقاب من طبقة الأغنياء . وفى ذلك كتب « فينلون » رسالته إلى لويس الرابع عشر فى ١٤ مايو عام ١٦٩٣ ، ثم كتب قصته الملحمية : « مغامرات تليماك » ، وقد ظهر الكتاب الأخير فى طبعته الأولى عام ١٦٩٩ ، وبين سطورهِ آراء الكاتب فى الإصلاح الملح للنظم السياسية والتربوية ، كما كتب الباحث الاقتصادى بواجبير Boisguillebert فى أسباب بؤس البلاد والمخرج منها ، عام (١٧٩٧) .

وأدى الدجل الدينى ، والتعبير الزائف فى القصر والحاشية ، إلى صراع طائفى دينى ، ثم إلى موجة إلحاد . وساعدت على ذلك البلبلية العامة التى تنتشر عادة فى سنى الحرب . وقد قاوم بوسويه بعض الحملات الإلحادية التى شنها من تعرضوا لتأويلات نصوص الإنجيل ، وليس هذا الإلحاد ثوباً فلسفياً فى مؤلفات أمثال « بيسل » Bayle الفرنسى فى هولاندا ، فظهر قاموسه النقدى الفلسفى الكبير عام ١٦٩٧ ، كما وجد « سانت إفرمون » - فى نادى « دوقه مازارين » فى لندن - مؤثلاً غذى به المتمردون على الدين المسيحى ممن كانوا يغشون ذلك النادى . وانتصرت فلسفة ديكرت ، وتوسع أنصارها فى تأويلاتها ضد الدين ، على الرغم من حظر السلطات ، ومن مقاومة أساتذة السوربون . وكانت هذه الحركة الإلحادية بمثابة تمهيد للتمرد الرومانتيكى فى القرن التالى .

وفى مجال الأدب كانت الكلاسيكية تحتضر . فأخذ سلطان القدماء يتزلزل ، ودعا كثير من الكتاب والنقاد إلى التحرر من سيطرة الإغريق والرومان . وقامت

المعركة الشهيرة بين أنصار القدماء والمحدثين . ومن أكبر المدافعين عن المحدثين « شارل بيرو » فى كتابه : « الموازنة بين القدماء والمحدثين » (١٦٨٧) - وقد انتصر للقدماء صفوة ممن أنجبهم العصر ، مثل لافونتين ، وبوالو ، ولابروير ؛ ولكن الصراع أسفر - لدى أنصار القدماء أنفسهم - عن اعتدال واضح فى الدعوة إلى محاذاة الأقدمين ، كما أدى إلى التبصر والحذر فى شرح نظرية المحاكاة ، مما سنتعرض لبعضه فيما يخص مؤلفنا وكتابه فيما بعد .

وكتاب « الصور الأخلاقية » لابرووير يشهد بأن مؤلفه قد تعمق هذه الأحداث ، وعاش فيها بقلب فنان مرهف الحس ، وعقل مفكر لا يكتب إلا ما يؤمن به ، وثقافة ناقد لا يعرف هوادة فى الحق حين يصور خبايا عصره ونقائصه التى مهدت لما أشرنا إليه من أزمات أو صاحبها . فلم يغتر لابرووير بمظهر العظمة الخادع لعصره ، بل نفذ إلى ما وراءه فى صور تحمل طابع الهجاء الاجتماعى البناء ، وهذا الهجاء ذو دلالة إنسانية مطلقة من ثنايا التصوير الدقيق لدخائل الطبائع البشرية وسوء النظم الاجتماعية .

وقد أودع كتابه هذا خلاصة نفسه ، وجعل منه معيناً لا ينضب فى تصوير أطواء العصر وأدوائه . وعلى هذا الكتاب يجب أن يعتمد الباحث إذا أراد معرفة مؤلفه وعصره ، إلى ما لهذا الكتاب بعد ذلك من قيمة فنية وإنسانية .

وقد احتفظ التاريخ بقليل من المعارف عن حياة لابرووير الخاصة ونشأته . يقول سانت بوف : « لا نعرف شيئاً ، أو نكاد لا نعرف شيئاً ، عن حياة لابرووير . ويضيف هذا الغموض - كما لحظ الباحثون - إلى جلال عمله الأدبى ، بل يمكن أن يقال إن هذا

الغموض ليضعف من أثر ما كان لصاحبه من خلاق ومصير أليم . فإذا لم يبق سطر واحد في كتابه الفريد — منذ اللحظة الأولى من نشره — إلا أضفى على عصره جلاء الوضوح ، فليس لدينا مع ذلك من تفصيل خاص بحياة المؤلف نعرفه حق المعرفة . وتغمر شعاعات العصر كلها جوانب صفحات الكتاب جميعاً ، على حين يبقى خبيثاً وجه الرجل الذي بسطه بيديه .

ولهذا سنعتمد على استخلاص واقع حياته من كتابه أولاً ، إلى جانب المعلومات المتفرقة الضئيلة التي أبقى عليها التاريخ من حياته الخاصة .

ولا شك أن الحادثة الفاصلة الأكيدة في حياته هي اختياره في منزل أسرة « كوندية » مريباً لدوق بوربون عام ١٦٨٤ . وقد شطرت هذه الحادثة حياته شطرين : الأول يمتد حتى سن الأربعين ، وهو أطول ، ومعرفتنا به أشد غموضاً ، والثاني أقصر ، ولكنه أحفل أثراً وأوضح معالم .

وعلى حسب بحوث حديثة طويلة التحقيق ، قام بها المؤرخون بعد عصر سانت بوف ، أصبح محققاً أن مؤلفنا — « يوحنا دي لابروير » — ولد في باريس عام ١٦٤٥ ، وتاريخ شهادة تعميده يرجع إلى ١٧ من أغسطس ، في كنيسة سان كريستوف . وأبوه لويس دي لابروير من البرجوازية الصغيرة ، كان يشغل وظيفة كبير مفتشى الضرائب ببلدية باريس ، وأمه إليزابيث هامونين ابنة أحد وكلاء الدعاوى القضائية في شاتليه . وكان يعيش الوالدان مع أولادهما الثمانية — ومنهم يوحنا دي لابروير — عيشة ضئيلة من استثمار رأس مال قيمته اثنا عشر ألف فرنك — أو « جنيه » كما كان يسمى الفرنك حينذاك — إلى جانب دخل وظيفة الأب . ويساعدهم عم لابروير الأعزب

الذي يسمى : يوحنا ، وكان يسكن معهم . وإذن ينتمي لابروير في نشأته إلى أسرة برجوازية صغيرة ، وقد نمت هذه النشأة فيه روح الهجاء الناشئ عن الطموح المكبوت وسط مجتمع طبقي .

وأما عن تربيته الأولى فعرفتنا بها جد ضئيلة . ويؤكد معاصره الأب « أدري » (في مخطوطة عن كتاب مدارس جمعية الأورتوار في المكتبة الأهلية في باريس) أنه تربى في مدارس تلك الجمعية ذات الطابع الديني ، وكانت تعني مع ذلك بتعليم اللاتينية واليونانية . على أن إتقان لابروير لليونانية كان مشكوكاً فيه على حسب البحوث الدقيقة المعاصرة . ومن العجيب أن أعداء لابروير المعاصرين له لم يحملوا عليه من هذه الناحية ، ولم يشككوا في قيمة ترجمته لتيوفرست ، ولكن منذ عام ١٧٤٠ بدأ الشك يحوم حول قيمة هذه الترجمة من حيث دقتها . وفي مقدمة ترجمة تيوفرست الدقيقة — طبعة جيوم بوديه — قد أكد مترجمها المعاصر الأستاذ « نافار » أن ترجمة لابروير لها كانت هينة القيمة ، لا دقة فيها . وتصدى تلميذ من تلامذة « نافار » هو « كازيل » لحل المسألة (في مجلة الدراسات الإغريقية عام ١٩٢٢) فين — بحجج قوية لا تدفع — أن تحمس لابروير لتيوفرست كان ادعاء لا دعوة ، وأن لابروير لم يرجع إلى الأصل اليوناني إلا تبعاً لاعتماده أولاً وآخرأ على ترجمة تيوفرست اللاتينية التي قام بها « كازوبون » دون أن يشير أدنى إشارة إلى مرجعه اللاتيني الذي اعتمد عليه كل الاعتماد^(١) .

ومن الغريب أن لابروير كان يعرف الألمانية ، أمر نادر في ذلك العصر . وهو ينصح — في كتابه الذي

(١) لا يهمننا التفصيل هنا في هذه المسألة الأكاديمية ، ولكننا نرى أن الإشارة إليها بالغة الأهمية .

نعرضه - بتعلم اللغات في عهد الطفولة ، على سواء ، دون تأجيلها إلى عهد الشباب أو ما بعده ، ويسوى لابروير في ذلك بين جميع اللغات ، لا فرق بين قديمها وحديثها ، ليدرس منها الناشئ أكبر قدر يستطيعه (انظر كتاب الصور الأخلاقية ، الفصل الرابع عشر فقرة رقم ٧١) . ولابروير في ذلك ذو نظرة في التربية لا زالت حديثة .

ودرس لابروير الحقوق في باريس ، واضطر إلى مناقشة رسالته في جامعة أورليان عام ١٦٦٥ ، وكان عنوان تلك الرسالة : « الوصايا والهبات » . وإنما اضطر إلى مناقشتها في تلك الجامعة لأن القانون المدني لم يكن يدرس آنذاك إلا في تلك الجامعة وفي جامعة پواتييه . وما لبث لابروير أن فقد والده عقب عودته من أورليان إلى باريس عام ١٦٦٦ ، فكان عمه الوصى على الأسرة ، على حين صرف هو همه إلى البحث عن وظيفة له . فحصل أولاً على لقب محام للمرافعات أمام القضاء العالى في باريس . وليس لدينا من دليل ، ولا شبهة دليل ، على أنه مارس مهنة المحاماة ، على الرغم من أنه نص في كتابه على إكباره لتلك المهنة قائلاً : « مهنة المحاماة عسيرة مجاهدة ، وتفترض فيمن مارسها خصوبة التكوين وقوة الوسائل ، فليس يكتفى من صاحبها بما يكتفى به من الواعظ الذى ينطق ببعض الخطب يؤلفها في وقت فراغ ، ويسردها من الذاكرة ، في تسلط المسيطر وفي غيبة المناقض ، ويغيرها تغييراً طفيفاً ليحظى بشهرة إلقائها أكثر من مرة ؛ على حين يفوه المحامى بمرافعات خطيرة ، أمام قضاة يمكنهم أن يرفضوا عليه الصمت ، وضد خصوم يقاطعونه ، فيجب أن يكون على استعداد للإجابة . . . ويظهر من ذلك أن الخطابة أيسر من المرافعة ، ولكن الخطابة

الجيدة أشق . من المرافعة الجيدة (١) » (انظر الفصل الخامس عشر ، الفقرة رقم ٢٦) .

ونستطيع أن نهتدى إلى سر مقبته لممارسة هذه المهنة - مهنة المحاماة - بعد حصوله على وظيفته فيها ، ذلك أنه كان يكره لإجراءات القضاء لأنها لا تزيد سوى نفور من وحشية طبائع المعتدين والمستغلين الذين أنف أن يختلط بالمجتمع من أجلهم . يقول هو : « لا يسمع في الميادين وشوارع المدن الكبرى ، وعلى ألسنة المارة فيها ، سوى كلمات الاستغلال والاستيلاء ، والاستجواب والاعتراف ، والمرافعة ضد الاعتراف . أقلن يكون في العالم أقل قدر من الإنصاف ؟ أو هل يظل على النقيض مليئاً بأناس يتطلبون في جرأة ما ليس لهم فيه حق أو يرفضون في صراحة ما يدينون به ؟ وثائق تخترع لتذكير الناس أو إقناعهم بما وعدوا به ! ! ! يا لعار الإنسانية ! ! ! . . . » (كتاب الصور الأخلاقية الفصل الحادى عشر ، فقرة رقم ٢٧ - انظر أيضاً ما يفهم منه نفور لابروير من المحاماة في الفصل السابع فقرة رقم ٢١) - ويأسى لابروير كذلك أن تكون القاعدة في القضاء محوراً للصورة المكتوبة بين المتنازعين : (يقولون : حقاً هذا المبلغ من المال له ، وهذا الحق مكتسب له . ولكنه متعلق بهذا الإيصال الصغير ذى المظهر الشكى ، فإذا نسيه صاحبه فلن يستطيع أن يرجع به على خصمه ، ونتيجة لذلك يفقد مبلغه من المال ، وبذلك يتجرد قطعاً من حقه ، وإذن سينسى هذا الإجراء الشكى » وهذا ما أسميه ضمير

(١) يقصد لابروير أن القدرة على اجتذاب الجمهور بكلام مبتذل مكرور في الخطابة أشق كثيراً من مناقشات المرافعة التى تتكرر دون انقطاع ، ولكنها غير عملة لارتباطها بواقع الأحداث ، متى وقعت موقفاً من بداهة الحامى وقوته .

المترافع ورجال القضاء - القاعدة الجميلة في نظري
القضاء ، والنافعة للجمهور ، والحافلة بالعقل والحكمة
والإنصاف ، قد تكون مناقضة تماماً للقاعدة التي تقول
بأن المظهر يجب أن يتضمن الجوهر . (نفس المرجع ،
الفصل الرابع عشر ، فقرة رقم ٥٠) - ولا شك أن
الفكرة الأخيرة للابروير مزعومة ، ولا يستطيع فهمها
إلا بالجمع بينها وبين الفكرة السابقة عليها من ضيق
لابروير بنقص الطباع الإنسانية ، مما يلجئ القضاء
إلى التمسك بنصوص شكلية في الوثائق ، وإلى تعليق
الحقوق بالاحتفاظ بتلك الوثائق ، ولكن الفقرتين
السابقتين تدلان قطعاً على أن لابروير لم يخلق لمهنة
المحاماة المتصلة بالقضاء ورجاله .

وقد آلت إليه بعض ثروة عمه حين مات عام
١٦٧١ ، فاشترى في عام ١٦٧٣ وظيفة وكيل مالى
لتقدير الضرائب وجبايتها في مقاطعة « كان » Caen
على بعد ٢٢٤ كيلو متراً غرب باريس ، ولكنه لم يترك
مع ذلك باريس ، على الرغم من أن القوانين كانت
تحم عليه أن يقيم في محل عمله . واستمر يأخذ مرتبه
السنوى وقدره ٢٣٥٠ فرنكاً ، دون أن يمارس وظيفته
تلك التي لم يتخَلَّ عنها إلا عام ١٦٨٦ . وظل في باريس
يحيا حياة المتعطل ، ولكنه تعطل الحكماء . فكان يتردد
على حديقة الكسمبورج وحدائق التويلرى ، يتأمل
ويدون ملحوظاته ، كما يصفه أحد معاصريه وزميله
في المحاماة : « فنيول مارثيل » ؛ وكما يتحدث هو عن
نفسه في كتابه قائلاً : « يحتاج المرء في فرنسا إلى كثير
من الصلابة ، وإلى سعة في الفكر ، حتى يدع جانباً
الوظائف والتقييد بالأعمال الموقوتة ، ليطيب نفساً بالبقاء
في منزله ، لا يشغل بشيء . ولا يكاد يتوافر لأمريء من
الكفاية ما يلعب به هذا الدور عن جدارة ، ولا من

نقاء الطوية ما يملأ به فراغ الوقت بدون ما يسمى
الدهماء : أعمالاً ؛ على أنه لا يعوز تعطل العاقل إلا
تسمية هذا التعطل باسم أفضل ، ذلك بأن يسمى التأمل
والكلام والقراءة والهدوء أعمالاً » (نفس المرجع -
الفصل الثاني ، فقرة رقم ١٢) - ويقول كذلك في
موضع آخر - ويقصد نفسه بما يقول - : (يسألك
الحمقى ورجال الفكر على سواء : بم تتلهى ؟ وفيم
تمضي وقتك ؟ فإذا أجبت قائلاً : إنى أفتح عيني
لأرى ، وأعير أذنى لأسمع ، وأحتفظ بصحتي وراحتي
وحريتي ، كان جوابي لديهم لا معنى له . فالخير
الأكيد ، والخير العظيم ، والخير الوحيد لا حساب
له ولا شعور به : « أو تقامر ؟ أو تشهد حفلات الرقص
المقنعة ؟ » هذا ما يقولون . وعليك أن تستجيب) .
(نفس المرجع الفصل الثاني عشر ، فقرة رقم ١٠٤)
ويرجح أنه بدأ في تدوين ملحوظاته التي كانت نواة
كتابه في تلك الفترة من حياته . ويحملنا منطق الأحداث
على الاعتقاد بأن هذه التأملات كانت مقصورة أولاً
على من يشهدهم من الناس وعلى الطبقة البرجوازية على
الأخص . وربما توقع في هذه الفترة أن تناح له فرصة
أرحب لتأملاته العميقة باتصاله بالعطاء .

وقد أتاح له هذه الفرصة صديقه : « بوسويه » ،
فأدخله مريباً في منزل من أسر النبلاء هو منزل
« كوندية » ، عام ١٦٨٤ نظير دخل سنوى قدره :
١٥٠٠ فرنكاً . ومنذ ذلك الوقت كان يقسم إقامته بين
باريس في منزل كوندية ، قريباً من حديقة الكسمبورج
وبين « شانتى » غير بعيد من باريس . وكان تلميذ
لابروير ، دوق بوربون ، في سن السادسة عشرة ،
عصياً ، مهملاً ، ذامزاج استبدادى ، وأخلاق فاسدة
يصفه « سان سيمون » بأنه : « حيوان من الحيوانات

إقامته أن الأسرة كانت ترعى لابروير وتحميه من أعدائه ، وأنه كان يراها بمثابة شرفة يطل منها على عالم الكبراء ليكمل خبرته بمجمعه . والأدب الفرنسي — بل العالمى — مدين لهذه الإقامة بكتابه الخالد . وهذا ما يلحظه ويقرره سانت بوف .

ولكن النصوص التى تركها لابروير تضيف سبباً آخر (كما لحظ ذلك بحق الأستاذ جى ميشو الأستاذ بالسوربون ، فى كتابه عن لابروير) — ذلك أن الفيلسوف كان بحاجة إلى المال ليعول أسرته . وقد حمّله ذلك إلى تغيير نظرتة إلى فلسفة العزلة التى كان ولوعاً بها قبل أن يتصل بهذه الأسرة . فقد عدل عن نظرتة إلى العزلة التى سبق أن ذكرنا على الرغم مما يدل على حرصه عليها فى نص يرجع تاريخ تدوينه إلى عام ١٦٨٩ ، إذ نراه فى نص آخر كتبه فى عام ١٦٩١ يفضل عليها مسلماً آخر : « ثمّ فلسفة تسمو بنا عن الطمع والثروة ، وتجعلنا نساوى — ماذا أقول ؟ — بل نفضل الأغنياء ونبلاء المولد وأصحاب المناصب الكبيرة ، وتحملنا على الاستهانة بالوظائف وبمن يبحثون عنها ، وتخلصنا من الرغبة والسؤال والرجاء والإلحاف وثقل الكلفة ، وتنجيننا من الانفعال نفسه ، ومن السرور المفرط بأننا قد علونا . وثمّ فلسفة أخرى تسخرنا وتخضعنا لكل هذه الأمور ، فى سبيل مصلحة ذوى قرابتنا وأصدقائنا : وهى الفلسفة المثلى » . (الفصل الثانى عشر ، فقرة رقم ٦٩) . وفى عام ١٦٨٨ ظهر كتابه : « الصور الأخلاقية » فى طبعته الأولى ، بعد أن أمضى قرابة عشر سنين فى تأليفه ، وقرابة عشر سنين أخرى متوجساً من نشره على الناس . وسنخص هذا الكتاب بالحديث بعد قليل . وقد أدى نجاح الكتاب نجاحاً نادراً لدى الجمهور إلى أن يطمح لابروير فى ترشيح نفسه للأكاديمية الفرنسية .

المریعة . يبدو أنه لم يخلق إلا ليفترس ، أو يغتال الخنفس الإنسانى . . . وفى الشتائم وصنوف الفسق ينفق وقته ويصادف مسلاته . . . » وكان كونديه الكبير ذا مزاج حاد ، ضعيف الفكر ، فريسة المرض ، ولكنه كان لطيف المحضر مع لابروير . وقد كلف لابروير بتعليم الدوق فلسفة ديكارت ، ثم الجغرافيا والتاريخ ، والنظم السياسية والميتولوجيا . ويبدو أن لابروير كان لوظيفته هذه مخلصاً غيوراً ، كما تدلنا على ذلك رسائله السبع عشرة التى كتبها إلى كونديه الكبير فى تلك الفترة . وتدلنا هذه الرسائل على سعة أفق لابروير كذلك ، وعلى صدق نظراته التربوية التى اهتدى إليها وحده بعمق فكره . فها هو ذا يدرك تعليم التاريخ إدراكاً حديثاً فى رسالته التى كتبها فى ١٨ من أغسطس عام ١٦٨٥ ، متوجهاً بها إلى رب الأسرة :

« أوقن أن عظمة رفعتكم تريد أن أحيطه علماً بدواعى الحرب ، وبأخطاء الأمراء وصوابهم . . وبدون هذا لن يكون التاريخ سوى مذكرات لأحداث يومية » .

وفى عام ١٦٨٥ تزوج دوق دي بوربون — تلميذ لابروير — من مدموازيل دي نانت ابنة لويس الرابع عشر التى أنجبها من مدام دي مونتسپان . وفى عام ١٦٨٦ مات كونديه الكبير ، وأصبح دوق دي بوربون يلقب بالأمير ، وانتهت فترة تربية لابروير له بعد أن دامت ثمانية عشر شهراً . ولكن لابروير استمر فى بيت الأمير ، مشرفاً على مكتبته .

ولم تكن إقامة لابروير — على ما له من مزاج حاد واعتداد بنفسه — ميسورة فى مثل ذلك المنزل ، وبخاصة بعد موت كونديه . وربما كان السبب فى استدامة

القلبية في العاشر من مايو عام ١٦٩٦ عن إحدى وخمسين سنة .

ويتضح مما سبق أن كتاب « الصور الأخلاقية » يكاد يكون مؤلفه الوحيد ، إلى جانب الرسائل التي كتبها في فترة تربية دوق بوربون - وقد ذكرنا نموذجاً من تلك الرسائل وتحدثنا عن غايته منها - ثم كتاب محاورات في نزعة الهدوء الصوفي الباطني (Quietisme) - وقد أشرنا آنفاً إليه - وقد اعتمدنا ما أمكننا على نصوص كتابه الأول فيما سبق أن ذكرنا من معالم حياته العامة للكشف عن شخصيته ، وحتى لا ندع فرصة ننتفع بها من الكتاب الذي كلفنا بتقديمه . وعلمنا الآن أن نخص هذا الكتاب بمزيد من التحليل والإبانة ، لنتعرف قيمته في شتى نواحيه الفكرية والفنية .

كتاب الصور الأخلاقية

كان لابروير في سن الثالثة والأربعين من عمره حين نشر كتابه لأول مرة عام ١٦٨٨ . وكثيراً ما راوده الشك في قيمة كتابه لدى الجمهور ، فاستشار كبار أصدقائه من كتاب العصر ، ويحكى المؤرخون له قصة طريفة في ذلك : أنه كان يتردد على صاحب مكتبة في شارع « سان چاك » يسمى : ميشاليه ، ليقتني منه ما جد نشره من كتب ، وكان لصاحب المكتبة طفلة رشيقة يحادثها لابروير ويلاطفها . وذات يوم قال له لابروير بعد أن أخرج من جيبه مخطوطاً : « هل لك في أن تطبع هذا ؟ لا أدري ما إذا كان سيسد نفقات طبعه ، ولكنه إذا أدر رجاً فسيكون من نصيب صديقتي هذه الصغيرة » . وقد قبل ميشاليه العرض ، وظهر الكتاب في طبعته الأولى مجهول المؤلف بعنوان : « الصور الأخلاقية لتيوفراست ، مترجمة عن اليونانية ،

وكان له فيها أصدقاء خلص ، مثل بوسويه ، وبوالو الذي تحمس له بسبب اشتراكه معه في الانتصار للأقدمين ، في « المعركة بين المحدثين والقدماء » التي أشرنا إليها من قبل ، ثم راسين الذي فضله لابروير على كورني في كتابه ، وأطال في هذا التفضيل في خطاب استقبله بالأكاديمية الفرنسية . وقد تقدم بطلبه للأكاديمية ثلاث مرات منذ عام ١٦٩١ حتى عام ١٦٩٣ ، وهو العام الذي اختير فيه عضواً بها ، واستقبل بها في الخامس عشر من يونيو ، وكان استقبال الأعضاء لخطابه فاتراً ، بل هوجم من خصومه هجوماً شديداً لا يهمننا هنا تفصيل القول فيه ، وبسببه ألف لابروير مقدمة لخطابه الذي ألقاه في الأكاديمية .

وقلما كان يشهد جلسات الأكاديمية عقب انتخابه بها ، بل أمضى أكثر وقته في تلك الفترة في شانتني ، ومن آن لآخر كان يحضر إلى باريس ويزور أصدقاءه من رجال الحاشية . وفي تلك الفترة قامت معركة حول النزعة الصوفية المسماة Quietisme وكان من كبار دعايتها « فينلون » عدو لابروير اللدود ، وقد انضم لابروير فيها إلى بوسويه الذي قاوم هذه النزعة أشد مقاومة . وهي تقوم على دعوة صوفية سلبية ، تنحصر فيها العبادة في التأمل الباطني ، والقضاء على الإرادة الفردية ، والاستسلام التام للألوهية الماثلة أمام المتأمل . وقد ألف لابروير فيها كتابه : محاورات في نزعة الهدوء والاستسلام الباطني : Dialogue sur le Quietisme ، وقد ظهر الكتاب بعد موته ، ويشك كثير من المؤرخين في نسبته إليه ، وقطعاً فيه كثير من الدخيل على لابروير ، وفيه كذلك ما يمثل روح لابروير ونزعته ، وما يتفق وآراءه في كتاب الصور الأخلاقية . وتوفي لابروير فجأة بالسكتة

مع الصور الأخلاقية لهذا العصر وتقاليده . وظفر الكتاب بنجاح عجيب ، فنفدت منه ثلاث طبعات في أقل من عام . وحصلت ابنة ميشاليه منه على مبلغ طيب من الربح حظيت من ورائه بزيحة طيبة . وظل الكتاب ينشر في طبعاته المتوالية مجهول المؤلف حتى الطبعة التاسعة التي ظهرت عقب موته ، ولكنه في الطبعة السادسة قد وضع عليه اسم مؤلف هو : « جوفروا دى لابروير » (أحد أجداد لابروير) ، واستمر كذلك حتى في الطبعة الثامنة التي كانت تحتوى على خطابه في الأكاديمية وعلى مقدمة ذلك الخطاب . ولم يكن هذا التواضع باخفاء الاسم إلا ظاهراً ، فقد كان جل الناس يعرفون المؤلف ويرددون اسمه .

أما إظهاره الكتاب باسم تيوفراست ، وإضافة جهده له ، فقد كان واضحاً أنه يتقى بذلك سخط الكبراء ومكائد أعدائه في وقت معاً ، فاحتسب وراء مؤلف إغريقى ، لأنه كان يهجو آفات العصر ممثلة في أولئك العظماء . وكما يعبر عن ذلك « ماريو » في بحثه الذى عنوانه : « لابروير » ، قائلاً إن لابروير في كتابه : « قد أخذ يغامر بالزج بنفسه في بحر المخاطر ، على أمواج تهدده بالعواصف ، فكان من اليسير لديه أن يرفع فوق قلع سفينته العلم الإغريقى تقيّة » . وقد شجعه حسن استقبال الجمهور لكتابته على أن يزيد في طبعاته المتوالية . ومنذ الطبعة الخامسة أخذ يحدد ما يضيفه . ولم تحتو الطبعة التاسعة على زيادة سوى تنقيحات لبعض العبارات . ويكفى أن نذكر أنه في ثنايا هذه الطبعات زاد عدد الصور الأخلاقية من ٤١٨ إلى ١١٢٠ ، على أن خمساً وأربعين منها زيد فيها فقرة أو فقرات كثيرة . ويعترف لابروير في خطاب استقباله في الأكاديمية أنه كان حذراً في هذه الإضافات ، بتقديم فيها عن

مشورة المخلصين ، خوفاً من سخط الجمهور إذا أوغل في هذا الطريق ، طريق الهجاء الاجتماعى المخوف بالأخطار .

وعدد فصول الكتاب — كما وصل إلينا — ستة عشر فصلاً ، هي : التناج الفكرى ، الجدارة الشخصية ، النساء ، من القلب ، في المجتمع وصلاته ، الثراء والحظوظ ، المدينة ، رجال الحاشية ، العظماء ، رئيس الدولة والدولة ، الإنسان ، أحكام الناس ، في التقاليد السائدة ، بعض عادات الوعظ الدينى ، ذوو الخواطر القوية (تسمية ساخرة يقصد بها الملحدون أو من يسمون بأحرار الفكر) .

ومنهج لابروير أنه يصوغ خواطره متتابعة في كل فصل من الفصول السابقة ، تحمل أرقاماً متوالية . وغالباً ما يكون الخيط الذى يجمع هذه الخواطر دقيقاً ، حتى لينقطع أحياناً بالقارئ ، فتبدو الأفكار شتية لا نظام لها . وقد حمل أعداء لابروير عليه بأن الكتاب لا وحدة له ولا منهج . فدافع عن نفسه في خطابه في الأكاديمية ، فرماه بأنهم لم يلحظوا أن « خمسة عشر فصلاً — من الستة عشر التى يحتويها الكتاب — موضوعها الكشف عن الزيف والمساخر التى يصادفها المرء في مشاغل الأهواء والميول الإنسانية ، وليست الغاية من هذه الفصول سوى تدمير العوائق التى تؤدى إلى الضعف أولاً ، وتطمس بعد ذلك لدى كل الناس التماس معالم معرفتهم بالله . فليست هذه الفصول الخمس عشرة سوى تمهيد للفصل السادس عشر والأخير . . » وفى خطاب لابروير عن تيوفراست يذكر أنه عني بالكشف عن شرور الإنسان وأهوائه ومواطن السخرية في سلوكه ، وغايته من ذلك خلقية ، هي « أن يصير الإنسان عاقلاً ، ولكن بطرق بسيطة مألوقة ،

وبوسائل التفكير في أعماله في حيدة ، دون عناية بالمنهج ، وعلى حسب ما تقود إليه الفصول المختلفة . وفي مقدمة الطبعة السادسة من كتابه يذهب مذهب الكلاسيكيين في العناية الخلقية مما يكتب : « على المرء ألا يتكلم أو يكتب إلا من أجل تعليم سواء ، فاذا حدث أنه أعجب الناس فلا ينبغي مع ذلك أن يندم ، إذ أن هذا يساعد على الإيعاز بتقبل الحقائق التي يجب أن يعلمها الناس » .

ولعل خير من كشف عن منهج لابروير في ترتيبه لفصول كتابه هو سانت بوف ، إذ يرى أن لابروير بدأ كتابه بما يخص الفرد أولاً في نتاجه الفكري ، وجدارته ، والمرأة كذلك ، والحياة الخاصة أو العواطف حتى الفصل الرابع ، يلي هذه الفصول الأربع ما يخص المجتمع وصلاته ، ورجال المال حين يتحدث عن الثراء والحظوظ ، ثم أهل المدينة ، ورجال الحاشية ، والعظماء أو النبلاء والأمراء ، ويتبع هذه الفصول بحديثه عن سيد الدولة ، لويس الرابع عشر ، ولم يكن لكتابته أن يخلو من هذا الفصل اتقاء ، وكأنه مانعة الصواعق التي يمكن أن تحيط به لو أهل الكتابة عنه . ويليه فصل عنوانه : « الإنسان » ، فيه يصف لابروير الإنسان على حسب طبيعته الخلقية ، وما تحفل به من خبث ودهاء . ويؤكد « سانت بوف » أن لقطاع الصلة بين هذا الفصل الذي عنوانه : « الإنسان » والذي قبله ، مقصود للابروير ، وله دلالة اجتماعية هجائية . ذلك أنه بعد أن أطرى الملك تقيّة ومدارة ، أخذ يصف الإنسان على الطبيعة ليرى الملك نفسه كما يرى سواء . وتبدو الفصول الثلاثة التالية في أحكام الناس وعاداتهم ومناهج سلوكهم قلقاً بعض القلق في موضعها ، يليها الحديث في آفات رجال الدين في فصل الوعظ ، ثم الفصل

الأخير في البرهنة على ضرورة العقيدة وسلامتها ضد وجود المنكرين ، وكأن هذا الفصل الأخير أيضاً مانعة صواعق أخرى من المؤلف يحتمى بها من أعدائه وخصومه ، وإذن فالخيوط التي يربط هذه الفصول دقيق ، ويريده لابروير كذلك ، لأنه خيط يسير به في متاهات الهجاء الاجتماعي الجريء لآفات العصر ، وللاّثنين بها في حق المجتمع والإنسانية .

ونرى أن الادعاء بالتزام لابروير بمنهج منطقي يجعل لكتابته وحدة ، فيه تكلف لا يبرره النص . ويكفي - تفادياً للإطالة - أن نذكر أن لابروير كثيراً ما يكرر أفكاره في أساليب مختلفة ، في فصول متباعدة في موضوعها . ولنأخذ مثلاً لذلك الفصل الأول من كتابه ، وموضوعه نظرات لابروير في النقد الأدبي وفي قيمة بعض الشعراء والكتاب المعاصرين له . ويصف سانت بوف هذا الفصل قائلاً : « إنه فن الشعر الذي أنتجه لابروير ، وهو فن بلاغته الخاصة به كذلك » . ويتحدث سانت بوف عنه كذلك في موضع آخر أن هذا الفصل فيما يحتوي من آراء نقدية ، وفي طريقة عرضها ، ما زالت قيمته حاضرة ، على حين لم تعد قيمة تذكر لفن الشعر الذي ألفه بوالو . وعلى الرغم من ذلك لا ينبغي بحال أن تقتصر على هذا الفصل في التعرف على آراء لابروير النقدية وعلى طريقة تقويمه للأدب ، إذ أنه يكمل هذه الآراء في فصول كثيرة أخرى من نفس الكتاب ، مثلاً في فصله في الوعظ الديني ، والعادات ، والمجتمع ، وأحكام الناس . . . - على أن هذا الفصل بمثابة مقدمة في فن لابروير وطريقة كتابته التي ألزم بها في الفصول التالية . ولهذا نخصه هنا بمزيد من العناية لأهمية دلالاته الفنية والإنسانية .

ولابروير - في هذا الفصل الأول من كتابه - يدعو

— شأنه شأن معاصريه — إلى محاكاة الأقدمين عن هضم وتمثل وأصالة ، مؤمناً بأن هؤلاء الأقدمين من اليونانيين والرومانيين قد وصلوا في أدبهم وعلمهم إلى درجة لا يمكن معها أن ينبغ كاتب دون أن يرد منابعها الحسبة . فهو يقول : « كل شيء قد قيل ، وقد أتينا بعد فوات الأوان ، منذ ما يزيد على سبعة آلاف سنة ، حين وُجد أناس ومفكرون ، ولم يبق لنا إلا أن نلتقط سقط الحصاد على أثر ما جمعه الأقدمون والنابعون من المحدثين (يقصد نابغى عصر النهضة من الإيطاليين) (الفصل الأول ، فقرة رقم ١) — ولكنه يعود — في سعة أفق ومرونة فكر — إلى تقرير إمكان التفوق على الأقدمين بعد ورود مناهلهم : « لن يستطاع بلوغ حد الكمال في الكتابة ، ولن يستطاع — مع توافر القدرة — التفوق على الأقدمين إلا بمحاكاتهم » (نفس الفصل ، فقرة ١٥) — وكأنه يرد على غلاة المحدثين الذين ينكرون فضل القدماء في معركة القدماء والمحدثين لعصره ، حين يقول من نفس الفصل : « يتغذى المرء بميراث الأقدمين وبارعى المحدثين ، وينسخ كتبهم ، ويستخلص منها ما استطاع ، ويحشر منها في أعماله الأدبية . وحينما يصير أخيراً مؤلفاً ، وحينما يعتقد الناس أنه يسير وحده على قدميه ، يتمرد ضد الأقدمين ، ويسىء إليهم ، شأنه شأن هؤلاء الأطفال الذين سلمت بنيتهم وقويت بما تغذوا به من لبن طيب ، يضربون مريبتهم عقب فطامهم » . (نفس الفصل ، الفقرة الخامسة عشرة) .

على أن لابروير واسع الأفق في نظرته إلى هؤلاء الأقدمين ، ينعى على المشتدقين باسمهم ، ممن يتخذون الانتماء إلى الأقدمين حظوة في ذاتها ، مستقلة عن غايتها . وهو في نظرته هذه يعبر عن وجهة النظر الحديثة

السليمة . وقد سبق أن لحظنا أنه يوصى بتعليم الطفل ما يستطيع من لغات على سواء ، سواء منها المحدث والقديم (الفصل الثاني عشر ، فقرة ٤٧) — وما هو ذا يحمل في سخرية على المنتطعين بتمسكهم باليونانية لذاتها قائلاً : (. . .) ويستمر في حديثه أحد كبار الدولة قائلاً : « فلان يعرف اليونانية فهو إذن مغمور ، فهو إذن فيلسوف !! » وحقاً ، فيما يظهر ، كانت بائعة الخضر في أثينا تتكلم اليونانية ، فهي من أجل ذلك فيلسوفة . وجيرونم بينيون وجيوم دى لا موانيون كانا مجرد نكرات ، ومن ذا يشك في ذلك ؟ وكانا يعرفان اليونانية إنما اللغات مفتاح العلوم ومدخل إليها ، لا تتجاوز هذا الحد . فاحتقار الأولى يؤدي إلى احتقار الأخرى . ولا تفرق اللغات بكونها قديمة أو حديثة ، ميتة أو حية ولكن بكونها خشنة أو مهذبة ، وبما إذا كانت الكتب التي صيغت فيها ذات ذوق طيب أو سيئ . . . » (الفصل الثاني عشر ، فقرة رقم ١٩ ، قارنها كذلك بالفصل الرابع عشر ، فقرة ٧٣) .

وواضح من دعوة لابروير إلى الغاية الخلقية التعليمية للأدب — فيما سبق أن ذكرنا — أنه كان ينزع فيها منزع الكلاسيكيين ، ولكنه يعنى عناية خاصة بالأسلوب الواضح الدقيق الأصيل : « في الفن نقطة كمال ، شأنه شأن الطيبة والنضج في الطبيعة » . والذي يشعر بهذه النقطة ويولع بها هو ذو الذوق الكامل . ومن لا يشعر بها ، أو يولع بما دونها أو ما وراءها ، فهو ذو ذوق تالف . فثمَّ إذن ذوق طيب وذوق سيئ ، ويمكن أن يناقش الذوق مناقشة يدعمها أساس » (مناقشة موضوعية) (الفصل الأول ، فقرة رقم ١٠) .

والذوق نوع من الغريزة يكتسب بالتربية ، وهو مقدم في النقد على مجرد مراعاة القواعد الجافة التي قد

تنال من روح العمل الأدبي . وهنا أيضاً يتجاوز لابروير منطقة الكلاسيكية العقيدية : « حينما تسمو القراءة بفكرك ، وتلهمك مشاعر النبل وعلو الهمة ، فلا تبحث عن قاعدة أخرى للحكم على الكتاب ، فهو حينئذ طيب ، خرج من يد صناع » (نفس الفصل ، رقم ٣١) - وغاية الكاتب الحقيقية هي الكشف عن الحقيقة الموضوعية ، دون التطلع إلى التأثير المباشر : « علينا أن نبحث عن صواب التفكير وصواب القول فحسب ، دون إرادة قيادة الآخرين إلى اتباع نفس ذوقنا ومشاعرنا ، فهذا مطمح يتجاوز الطاقة » (نفس الفصل ، فقرة ٢) .

وعلى الرغم من أنه لا ينبغي أن يدور في خلدنا أن لابروير من دعاة الفن للفن ، لما سبق أن ذكرنا من نصوص ، فانه يعنى مع ذلك بالصياغة عناية جعلت بعض المتسرعين يعزون إليه أنه من دعاة الفن الخالص ، ولكنه في الحقيقة يقصد إلى الموازنة بين التعبير والفكرة ، دون أن يجعل العبارة غاية في ذاتها . وهذا ما جعل سانت بوف يجعل خاصة كتابه الأولى أنه يتساوى فيه الشكل والمضمون مساواة تامة فريدة عجيبة . وها هو ذا لابروير يؤكد عنايته البالغة المدى بالتعبير : « بين جميع التعبيرات المختلفة - التي يمكن أن تدل على فكرة من أفكارنا - ليس سوى تعبير واحد منها هو الصالح . ولا يضادفه المرء دائماً حين يتكلم أو يكتب ، على أنه مع ذلك موجود ، وكل ما سواه ضعيف لا يرتضى به رجل الفكر الذى يريد أن يفهمه الناس . . . » (نفس الفصل ، فقرة ١٧) - ولا يقع المرء على هذا التعبير إلا بالموازنة الدقيقة بين المضمون والشكل ، وبمراعاة الحقيقة ، وجهد العناية باختيار الألفاظ وصياغة التركيب ووضوحه : « كل فكر المؤلف ينحصر في دقة التحديد

ودقة التصوير . فلم يتفوق موسى وهومير وأفلاطون وفرجيل وهوارس على من سواهم من الكتاب إلا بتعبيراتهم وصورهم ، وعلينا أن نعبّر عن الحقيقة ، ليكون ما نكتبه طبعياً قوياً دقيقاً » (نفس الفصل ، فقرة رقم ١٤) . وننبه هنا إلى أن ورود كلمة « الصور » في عبارات لابروير - كالعبارة السابقة مثلاً - لا يقصد بها سوى الوجوه البلاغية الكثيرة المختلفة ، ولا تمت بصلة إلى الخيال في مفهومه الحديث ، إذ أن لابروير ظل في هذا كلاسيكياً ، لا يؤمن بالخيال ، والخيال عنده مرادف للوهم ، يحذر منه كما يحذر منه من قبل أرسطو ، معبود الكلاسيكيين ، ويعده آفة الكاتب ، لأنه « لا ينتج غالباً سوى أفكار زائفة مجدبة » (الفصل الخامس ، فقرة رقم ١٧) . ويسير لابروير في هذا على درب كلاسيكى مطروق ، كما هي حال پاسيكال وبوالو . ونحن هنا أبعد ما نكون من القرن الثامن عشر والتاسع عشر الأوربي ، وبخاصة منذ « كانت » ، حين أصبح الخيال - في معناه الحديث - هو مصدر الصورة ، وأكبر دعامة للكاتب والشاعر . ويعتد لابروير في قواعده الجمالية بسلامة الذوق ، وطول ممارسة الأعمال الأدبية ، وقوة التمييز بين الأساليب على أساس من الدربة ورهف الحس الفنى ، أكثر مما يعتد بالقواعد في حرفيتها . ويتميز في هذه الناحية عن أقرانه من الكلاسيكيين ، وبخاصة بوالو . يقول لابروير : (ما أوسع الفرق بين كتاب جميل وكتاب كامل ، أى مطابق للقواعد ، ولا أعرف ما إذا كان قد وُجد بعد كتاب من هذا النوع الأخير ، وربما كان الوقوع على ما هو عظيم جليل أيسر لدى العبقریات النادرة من تجنب كل صنوف الخطأ في القواعد . . . فالشعر في مسرحية « السيد » من أجمل

الإشعار التي يمكن صدورها ، على حين أن خير نقد ألف في موضوع من الموضوعات كان نقد مسرحية « السيد » (نفس الفصل ، فقرة ٣٠) . وفي الفكرة الأخيرة يشير لايروير إلى المعركة الشهيرة في النقد الفرنسي حول مسرحية السيد لكورني ، ويطرى المسرحية ، كما يطرى النقد الذي صيغ فيها في لهجة مهذبة ، برغم قسوته وتهافته أحياناً . وفي هذه الفكرة يقر لايروير الصراع الدائم بين النقد والأدب ، ولكنه يقر في الوقت نفسه حق الكاتب في عصيان القواعد متى أخرج عملاً جليلاً جميلاً معاً . وقد انتصف لايروير لكورني في مسرحيته هذه التي خرج فيها على قواعد عصره ، على الرغم من أن لايروير كان يفضل عليه راسين الشاعر الفرنسي الذي راعى القواعد الكلاسيكية في دقة . وهذا انتصاف للخصم على حسب المبدأ ، لا سيراً مع الهوى . ونحس في وجهة نظره هذه نوعاً من المارارة والنقمة ، ضيقاً بنقد معاصريه . فهو يحذر من منحهم ثقته ، ويبحث عن معيار آخر أوثق صلة بروح العمل الأدبي من المعايير الحرفية السائدة ، ولكنه معيار يتطلب جهداً وأناة واستيعاباً لا يلقى فيه القول على عواهنه : « ليس النقد في الغالب علماً ، ولكنه مهنة ، يتطلب من قوة المثابرة أكثر مما يتطلب من العقل (التقريرى) ، ومن العمل أكثر مما يتطلب من التأهيل ، ومن المران أكثر مما يتطلب من العبقرية ، فاذا صدر عن تطفئ قراءاته على قوة تمييزه ، وعن يمارسه في نطاق جزئى على بعض الفصول ، كان مدعاة فساد القراء والكاتب » (نفس الفصل فقرة رقم ٦٣) - ويعود في فصل آخر فيؤكد ضرورة العمل والجهد ، ناعياً على الطفيليين الذين يستمرئون الجهل تقاعداً وتوانياً ، فيتعلقون بالكبراء والنبلاء لحمايتهم ، كما يتشدقون بأسماء كبار

الكتاب من قدماء ومحدثين ، يدعون شرف الانتماء إليهم دون دراية بهم ، وزهداً في البحث ، ثم يعقب : « يلزم المرء قليل من المعارف كي يساير فروض التهذيب في أدب المجتمع ، ولكن كم يلزم منها لأدب الفكر !!! » .

فكيف يوفر الكاتب والناقد لنفسه المقدرة الأدبية ؟ هنا أيضاً يلجأ لايروير إلى منهج يغاير منهج معاصريه ، وفيه تظهر أصالته ، حين يتعرض لكيفية تذوق النصوص الأدبية وشرحها ، وكأنه يلوح بذلك إلى طريقته في تكوين نفسه بتمثل آداب الأقدمين ، كما يفهم من مقدمته لترجمته كتاب تيوفراست . ويشرح ذلك لايروير - في الفصل الرابع عشر من كتابه - حيث يتول : « لا يفنى امرؤ بحق التوصية بدراسة النصوص مهما أظن . فهى السبيل الأقصر والآكد والأمتع لكل صنوف المعرفة . فاحصل على الأشياء من أربابها ، لتتاح من المصدر . تحسس النص وأعد تحسسك له ، واحفظه ، واستشهد به من الذاكرة في المناسبات ، وفكر على الأخص أن تنفذ إلى معناه في امتداده وتفاصيله ، ووفق بين أفكار المؤلف الأصيل ، واضبط مبادئه ، لتستخلص أنت بنفسك النتائج . وقد وجد الشراح الأولون أنفسهم في نفس الحال التي أريدك أن تكون فيها . فلا تستر بشروحه ، ولا تسر وراء نظراتهم إلا حين تقصر بك نظرتك . فشروحه ليست لك ، ومن اليسير كل اليسر أن تستعصى عليك ؛ على حين تتولد ملحوظاتك من فكرك وتظل فيه ، وستجدها مألوفة عادة في صلاتك بالناس ومشاوراتك وجدالك ... واخلص هكذا - بفضل هذه الطريقة في الدراسة - إلى الإقناع بأن كسل الناس هو الذى شجع على الفهقة بتضخيم المكتبات لا باغنائها ،

وبالمساعدة على تدمير النص تحت أعباء الشروح .
(الفصل الرابع عشر ، فقرة رقم ٧٢) .

ونفهم أن لابروير يرشد هنا إلى طريقة ، ولا يقصد إلى أمتهان النقد ، لأن هذه الطريقة السليمة نفسها لا بد أن تم بإشراف ذوى الدربة منذ البداية . وشاهدنا على ذلك أنه كان يتبعها في تربيته لدوق بوربون في دراسة التاريخ والنصوص الأدبية .

ومن ثانيا هذه النظرات النقدية الموضوعية العميقة التي تجلت فيها أصالة لابروير ، نلمح جانباً ذاتياً ، ذلك أنها أولاً وآخرآ ثمرة تجربته الحوية التي عاشها . ونشعر أنها بمثابة رد فعل لما تعرض له من حيف لدى معاصريه من النقاد فلم يعأبه ، وانصرف إلى الإخلاص لفنه . وقد أوحى له ذلك بإدراك عميق آخر ، هو الاحساس بتطور الأدب وحيويته ، وتغير الأذواق بتغير العصور . وهذه أيضاً نظرة تتجاوزها الكلاسيكيين . فعلى الكاتب أن يخلص لرسالته ، ويصدق في فنه ، وسيجد الجزاء على تطاول الأجيال إذا جحد له معاصروه : « من لا يعتد في كتابته إلا بدوق عصره يفكر في نفسه أكثر مما يفكر فيما يكتب : فعليه أن يتطلع دائماً إلى الكمال ، فتسترد الأجيال اللاحقة لنا ما جحد معاصروننا من إنصافنا » . (الفصل الأول ، فقرة رقم ٦٧) .

وحملته على بعض معاصريه من النقاد واضحة الدلالة فيما قلنا ، وهى تصدق على أدعياء النقد ، وكذلك على سيئى النية المعوقين في كل عصر . ولتقتصر منها على شاهدين بالغى الدلالة على من يتسترون على السوء على حين يعرفهم الجمهور بأسمائهم ممن أظهرتهم المصادفات الآثمة ، في حين ليسوا سوى دخلاء مدخولى الطوية ، وفيهم يقول لابروير في صورة

حوار : (ماذا تقول في الكتاب الذى ألفه هيرمودور ؟ « إنه كتاب سيء » ، هكذا - يجيب « أنتم » - أهو سيء ؟ - فيستمر في إجابته : هو كذلك ، حتى إنه ليس بكتاب ، أو على الأقل لا يجدر أن يتحدث عنه الناس - ولكن هل قرأته ؟ - ويجيب « أنتم » : كلا !! - ولم لا يضيف إلى ذلك أن فولفيا وميلانيا قد أنكراه دون أن يقرأه ، وأنه صديق فولفيا وميلانيا ؟) (نفس الفصل ، فقرة رقم ٢٣) .

ويتخذ لابروير هدفاً له آخر نوعاً من النقاد يتنكرون لما يعرفون ، ويكفرون بحق الكتاب الذين يؤمنون بقدره فيما بينهم وبين أنفسهم ، ضناً واعتداداً كاذباً ، ويعبر لابروير في هذا عن تجربته الخاصة بكتابه قائلاً : « كثير من الناس يصلون إلى درجة الشعور بمكانة المخطوطة التي قرئت عليهم ، ولا يمكنهم أن يضرخوا بما تستحق حتى يروا رواجها في الناس بعد طبعها وماذا يكون حظها لدى ذوى المواهب ، فلا يغامرون بأصواتهم ، ويريدون أن يحملهم الجمهور على ذلك ، أو يقودهم إليه سواد الناس . وحينذاك يقولون إنهم أول من استصوب هذا العمل ، وأن الجمهور تابعهم فيه . . . » (نفس الفصل ، فقرة رقم ٢١) .

ومن تحليلنا التفصيلي للفصل الأول من الكتاب تبين أن لابروير لا يتبع وحدة حاسمة في عرض أفكاره ، ولا منهجاً دقيقاً في تسلسلها ، ذلك أنه يكررها في مختلف الفصول ، لمناسبات كثيرة ، مما يصعب معه تتبع الأفكار على حسب موضوعاتها فصلاً فصلاً - لهذا ، ولضيق المجال المحدد لهذا المقال ، علينا أن نتبع أهم اتجاهاته العامة الباقية في مختلف الفصول جملة - بعد أن

عرضنا نظراته النقدية - كى نَتبعها بمجمل عن فنه
فى كتابته .

وقد التزم لابروير فى كتابه أن يصور آفات
العصر ، ويصف مآثمه . وقلما يتعرض لتصوير
الفضائل . ويغلب أن تكون هذه المواطن القليلة فى
حديثه عن الخير والفضائل دخيلة على عمله الأدبى ،
يعرضها من باب التقيّة أو التعريض . وهو ينص فى
مقدمة كتابه أنه إنما يصور عيوب مجتمعه على حسب
ما لحظه فى الطبيعة لكى يصلح المجتمع ذات نفسه :
« وهذه الغاية هى وحدها التى يجب أن يتوخاها
الكاتب ، وفيها مدى النجاح الذى قلما يتوقعه المرء .
ولكن بما أن الناس لا يسأمون أبداً من ممارسة النقائص ،
فعلينا كذلك ألا نمل - تأنيبهم . وربما يصيرون أسوأ
إذا أعوزهم الرقباء والنقاد ، وهذا الأمر الذى يحمل
الناس أن يعظوا وأن يكتبوا » .

وهو تارة يصف الإنسان والمجتمع وصفاً طابعه
التشاؤم والتفجع ، وتارة يتجاوز الوصف إلى النقد
الذى يشف عن بعض الأمل ، ويبلغ بهذا النقد أحياناً
أخرى مبلغ الهجاء الاجتماعى الذى ينزع فيه مزعاً
ثورياً واضحاً . ولنضرب أمثلة عامة موجزة لهذه
الاتجاهات :

١ - يدور تصويره للناس أفراداً أو فى الجماعات
على فكرتين أساسيتين : أن الحياة سيئة ، وأن الخبث
من طبيعة الناس : « لا ينبغي أن نختد على الناس حين
نرى غلظتهم وكفرانهم وإجحافهم وصلفهم وحجهم
لأنفسهم ونسيانهم الآخرين : فهكذا خلقوا ، وهذه
طبيعتهم . وهذا الاحتداد بمثابة ألا نستطيع احتمال أن
يسقط الحجر وأن تشب النار » . (الفصل الحادى عشر
فقرة رقم ١) . والحياة قصيرة المدى : « الحياة قصيرة

ملة ، تمضى كلها فى التقيّة ، يؤجل المرء إلى الغد أمله
فى راحته وسروره ، إلى تلك الفترة التى يكون قد
اختفى فيها خير ما فى العمر من صحة وشباب ...
ويأتى ذلك العهد الذى يفجئنا كذلك فى رغباتنا ،
وها نحن أولاء تفرسنا الحمى وتحاصرنا ، فاذا شفينا
منها فلكى نأمل كذلك فى زمن أطول » . (الفصل الرابع
فقرة رقم ٦٤) - وكذلك يقول : « يجب أن يضحك
المرء دون أن يكون سعيداً ، خشية أن يموت قبل أن
يضحك » . (نفس الفصل رقم ٦٣) . وفى الناس من
النقائص ما يجعلهم لا يحفلون بالمجتمع ، ومن ثم تتعذر
عشرتهم والوفاق بينهم : « يتساءل المرء لماذا لا يعيش
الناس جميعاً معاً ، ولا يؤلفون أمة واحدة ، ولا يرغبون
فى أن يتكلموا لغة واحدة ، وفى أن يحثوا خاضعين
لقانون واحد ، متوافقين على عادات واحدة وعبادة
واحدة ؛ ولكن حين أفكر فى تباين الأفكار والأذواق
والعواطف ، أدهش حتى من رؤيتى سبعة أشخاص
أو ثمانية يعيشون تحت سقف واحد وبين جدران
واحدة ، ليكونوا أسرة واحدة » . (نفس الفصل رقم ١٦)
ولابروير ينعى على المتحضرين من ساكنى المدن ومن
رجال التصوير أنهم فى أدوائهم الاجتماعية قد ضلوا فى فهم
الحياة . ولعله بذلك هو الكاتب الوحيد من بين الكلاسيكيين
الذى أشاد بالريف وأهله ، واعتد بالطبيعة وفضلها :
« ... فالطبيعة من نصيب من يسكنون الريف ،
هوئلاء وحدهم يعيشون ، وهم وحدهم على الأقل الذين
يعرفون أنهم أحياء » . (الفصل الثانى عشر رقم ١٩٠) .
وحين يتأمل فى النظام الاجتماعى لا يرى سبباً للتفرقة
بين الناس فى طبقات ، ليرتفع بعضهم على حساب
الآخرين ، دون مبرر من الجدارة والجهد - ويروعه
غرور الكبراء ، وغلوهم فى اعتدادهم بأنفسهم على

غير أساس . فهم يستمعون إلى مدائحهم من سواد الشعب في استهانة ، شأنهم في ذلك شأن الأمراء الذين يستهينون بدورهم بما يكيل لهم هؤلاء الكبراء من مدح كذلك . وأساس ذلك الغرور . (الفصل التاسع رقم ٥ ، ١٨ ، ١٩) .

ونكتفى بهذا القدر من شهادة لابروير على عصره في تصويره له ، لنبين بعض جوانب نقده وهجائه الاجتماعي الذي تتضح فيه ثورته على نظام عصره .

٢ - ويحمل لابروير حملة شعواء على حقوق النبلاء والعظماء ، وأنها مبنية على غير أساس ، ونحس وراء حملته اعتداده القوى بنفسه ، وشعوره بالخياف هو وأمثاله بين هؤلاء ، مما يجعله ضحية ألقاب فارغة اتخذت تعلقة للاستبداد . ولا شك أنه بذلك قد مهد للثورة الفرنسية وطلائعها في القرن التالي . يقول لابروير : « امتياز العظماء على من سواهم من الناس بالغ المدى من جانب : وأتنازل لهم عن رخاء العيش وفخامة الأثاث ، وعما يقتنون من كلاب وخيل وقروء وأقزام ومضحكين ومتملقين ، ولكني أغبطهم على حظوتهم أن يكون في خدمتهم أناس يستون معهم قلباً وفكراً ، بل يفضلونهم أحياناً » . (الفصل التاسع رقم ٣) .

ويذهب لابروير إلى وصف الحقد الدفين في قلوب الشعب على امتيازات النبيل ، وكأنه يحذر من هذا الحقد ، أو يستثيره في قلوب المهضومين ليلبغ مداه بالثورة عليه . « يتباغض صغار الناس حين يتبادلون المساءات بينهم . والعظماء مبغضون إلى صغار الناس - بما يفعلون بهم من شر ، - وبالخير كله الذي يجرمونهم إياه ، وهم مسئولون تجاههم عن سواد عيشتهم وفقيرهم وسوء

أخلاقهم ، أو على أقل تقدير يبدون في نظرهم كذلك » (نفس الفصل فقرة رقم ٢٢) .

ويبدو لابروير مرهف الحس ، ناثر الفكر عميقاً في إنسانيته ، حين يصور طائفة الفلاحين ، وهم ساكنو الريف الذي يعطف عليه ويغبط أهله لقربهم فيه من الطبيعة . وإذا كان في دعوته إلى حب الطبيعة رائداً للرومانتيكيين ، فانه في دعوته إلى إنصاف الفلاحين قد سبق هؤلاء الرومانتيكيين ، كما سبق في هذا عصره كله . يقول لابروير يصف الفلاحين في حقولهم في عصره : « يرى المرء بضع حيوانات متوحشة ما بين إناث وذكور ، منتشرة في الريف ، على سبيلها سواد ترهقها غبرة ، أمعن الشمس في إحراقها ، مرتبطة بالأرض تحفر فيها ، وتقبلها في عناد لا يقهر ، ولها ما يشبه الصوت الملفوظ . وحين تقوم على ساقها تبدو لها وجوه كالناس . وحقاً هم أناس . في الليل يأوون إلى جحور ، حيث يعيشون على الخبز الأسود والماء وأعشاب الحقول . وهم يكفون الآخرين من الناس مثونة الزرع والحرث والقطاف ، كي يعيشوا . ولذلك يستحقون ألا يعوزهم هذا الخبز الذي هو من ثمار غرسهم » . (الفصل الحادى عشر ، فقرة رقم ٢٨) ويرتاع لابروير للمفارقات الطبقية ، ويرسل صيحاته المدوية العميقة للقضاء عليها ، حتى لنشعر في عمق أنه على أهبة التضحية من ذات نفسه في سبيل العدالة الاجتماعية : « في الأرض صنوف بوئس تذهب باللب : بعض الناس يعوزهم القوت : يخشون الشتاء ويرهبون الحياة . على حين يأكل بعضهم في مكان آخر بواكر الفاكهة ، ويكرهون الأرض والفصول أن تخرج لهم ما استطاب . ومن البرجوازيين الصغار - لا شيء سوى أنهم أصبحوا أغنياء - من يجرعون

على ابتلاع غذاء مائة أسرة في وجبة واحدة . ليجنح من يشاء إلى هذين الطرفين المتناقضين ، فلا أريد ، إذا استطعت ، أن أكون شقياً ولا سعيداً ، سألقى بنفسى بين طرفى القصد لألود به » . (الفصل السادس فقرة رقم ٤٧) .

ولم يكن لابروير نفساً بائساً ، ولكنه كان يشعر بالفقر من حوله لغنى مشاعره ، ويرى في هذا البؤس المستهتر به من جانب الأغنياء عار المجتمع ، بل عار الإنسانية : « إنه لنوع من العار أن يكون المرء سعيداً بمرأى من بعض صنوف البؤس » . (الفصل الحادى عشر ، فقرة رقم ٨٢ ، قارنها كذلك برقم ٨٠ ورقم ١٢٧ ، ١٢٨ من نفس الفصل) . وتراءى قمة هذه الثورة في تفضيل لابروير أن يكون من الشعب على أن يكون من الطبقات الأرستقراطية المستبدة بالشعب . ولم يجروأ أحد من معاصريه على الموازنة بين هذين الطرفين ، فضلاً عن تفضيل الشعب على الكبراء ، وهنا نرى بشائر القرن الثامن عشر الذى حطم تلك الفروق ومحا تلك الطبقات . يقول لابروير : « إذا وازنت بين حالى الناس المتناقضتين كل التناقض ، أعنى بذلك الكبراء والشعب ، فإن الشعب يبدو لى مكتئباً بالضرورة ، على حين الآخرون قلقون فقراء مع فضلهم فى الرزق . ورجل الشعب لا يستطيع ارتكاب أى شر ، والعظيم لا يرغب فى فعل أى خير ، وهو قادر على الإتيان بكبار الآثام ، والأول لا ينشأ إلا على الأمور النافعة ولا يمارس سواها ، على حين ينحاز الآخر إلى المضار ، وهناك تراءى - فى سذاجة - الخشونة والصراحة ، وهنا تكمن عصارة خبيثة فاسدة تحت لحاء من مراسم الأدب . والشعب قلما يتوافر له الفكر ، على حين يعوز العظماء الروح . وللشعب جوهر طيب

ولا يعبأ أبداً بالمظاهر ، على حين ليس لدى العظماء سوى المظاهر مع سطح ضحل . أو على أن أختار ؟ لن أتردد : أريد أن أكون من الشعب » . (الفصل التاسع ، فقرة رقم ٢٥) .

ويسمو تقويمنا لهذه الصيحة الثائرة إذا عرفنا أن لابروير كان مرهف الحس ، يضيق بغلظ إحساس الشعب وخشونة الأخلاق الريفية (انظر الفصل الثامن رقم ٤٥ ، والثانى عشر رقم ٢٢ ، ٤٨ ، مثلاً) . ولكنه يتناسى ما فى الشعب من غلظة وخشونة ، لينحاز إليه فى مواجهة الظلم ، لاشتراكه فى الثأر معه ضد كبراء العصر . ألا يخطو بنا هذا القول نحو صيحات «ديدور» و «روسو» فيما ناديا به من بعد من مثالية الشعب وعصمته ؟ ألا تجود الموازنة الصائبة بين فكرة لابروير السابقة وإجابة « فيجارو » على كلام الكونت « ألمانفا » فى مسرحية « حلاق أشبيلية » ، إذ يقول « فيجارو » : « أحس بسعادة مفرطة حين ينسانى الوزير ، معتقداً أن النبيل من النبلاء يؤدى لنا خيراً ما كف عن إصابتنا بالأذى » . (مسرحية حلاق أشبيلية ، الفصل الأول ، المنظر الثانى) .

* * *

بقى لنا أن نجمل القول فى خصائص أسلوب لابروير . وقد سبق أن ذكرنا أهم أفكاره النظرية فى ذلك على حسب الفصل الأول من كتابه ، ثم على حسب أفكاره فيه كذلك فى الفصول الأخرى . وهى بمثابة المنهج الذى اتبعه لابروير فى كتابته ، عن أصالة انفرد بها فيما كتب ، حتى ليقول عنه بحق معاصره : « ميناج » : « لم يعثر أحد قبله على مثل ما وقع عليه من قوة التعبير وصوابه فيما نلتقى به من كتابه . فهو يقول فى كلمة ما لا يستطيع أن يؤديه سواه فى ست كلمات .

ومن الجميل لديه أيضاً أنه — على الرغم من جسارته في التركيب لعباراته — ليس من بينها ما هو زائف ، أو ما لم يوفق فيه كل التوفيق في بيان فكرته . وأشك كثيراً أن يستطيع امروء مجاراته بعد . . . » ويقول عنه تين : « تنحصر موهبته أساساً في فن الاجتذاب إلى ما يقول . قلما يبتكر ، ولكنه يطبع ما يمسه بطابع لا يمحى . ولا يقول سوى حقائق مألوفة ، ولكن لا يستطيع نسيانها بعد أن يقولها . . » ويرى الأستاذ « جى ميشو » أنه لا نظير له في أسلوبه في الأدب الفرنسي كله ، من حيث طول أناته وعمق وعيه وأناقته تصويره . ويقر له « سانت بوف » بنفس المقدرة ، وإن أخذ عليه بعض الهنات من التكلف مما يسميه : « عقب أخيليوس » عند لابروير .

وعلى الرغم من أن هذه الوسائل الفنية لا يتذوق أكثرها إلا في لغتها ، نذكر مع ذلك بعضها ، مما يمكن أن يتذوقه القارئ العربي . ففيها التعريف اللاذع في طابع هجائى : « المتدين الزائف هو الذى يصير كافراً تحت حكم ملك كافر » . (الفصل الثالث عشر ، رقم ٢١) . والاستفهام الدقيق الذى يحتوى في نفسه على الإجابة عن معنى دقيق : « إذا كان مألوفاً أن نتأثر بالغ التأثير بالاشياء الجميلة ، فلماذا نبدو أقل تأثراً بالفضيلة ؟ » . (الفصل الثانى رقم ٢٠) — والتعمية المثيرة للانتباه في شكل أحجية : « يوجد ناس في مسكن سيء ومبيت غير مريح ، يلبسون الأسهال ، ويتناولون أسوأ غذاء .. يعانون من الحاضر والماضى والمستقبل ، حياتهم عذاب دائم عن طيب خاطر ، وهكذا وجدوا السر في السلوك إلى الهلاك بالطريق الأشق . أولئك هم البخلاء » . (الفصل الحادى عشر ، رقم ١١٤) . (ومما يستحق الإشارة إليه أن الجاحظ يطنب في هذا المعنى ، ولكنه

لا يتخذ نفس الوسيلة التصويرية) . ثم التحليل للمعاني النفسية بطريق تعيين دقائق المظاهر الخارجية ، وحسن استخدام الحوار أو الحديث الفردى .

والخاصتان الأخيرتان تابعتان لفن الصورة الأخلاقية ، وهو فن كان رائجاً وتابعاً لغيره قبل لابروير في الأدب الفرنسي ، ولكن « لابروير » بلغ به أقصى ما قدر له من كمال ، ولم يتبع فيه طريق تيوفراست في تعداد الحقائق التجريدية للنموذج الخلقى من حيث هو ، كالبحيل والمرائى ، والخليث ، والمغتر . . . من حيث هم نماذج بشرية صالحة لكل زمان ومكان ، ولكنه التزم وصف نماذج حية تنطبق على ذوى النقائص في عهده ، وعرف كيف يردها خالدة المعنى والأثر بفنه . وقد حاول معاصروه أن يروا وراء كل صورة شخصاً معيناً من معاصريه قصد إلى هجائه في صوره ، فألفوا كتباً عنوانها : « المفاتيح » للكشف عن الشخصيات التى قصد إليها لابروير في صوره . وقد أنكر لابروير ذلك توجساً مما قد يثيره خصومه من عدااء ومكيدة . ولكن يظهر من رده نفسه أن هذا الرد لم يكن سوى تقيّة . يقول لابروير في مقدمته لخطابه الذى ألقاه في حفل استقباله بالأكاديمية : « .. لقد صورت في الحقيقة حسب الطبيعة ، ولكنى لم أفكر دائماً في تصوير هذا أو تلك ، في كتابى عن العادات والتقاليد . . . قد أخذت سمة من جانب وسمة من جانب آخر ، ومن هذه السمات المختلفة التى يمكن أن تنطبق على نفس الشخص ، ألفت صوراً محتملة ، ولم يكن همى تسلية القراء بهذه الصور الأخلاقية ، أو بالهجاء لشخص معين — كما يقول الساخطون — بقدر ما اهتممت أن أقترح على القراء آفات ليتجنبوها ونماذج ليتبعوها » .

ونضيف إلى صورة الناقد الأعمى البصيرة - الذى ذكرناه عند تحليلنا للفصل الأول من الكتاب - مثالا آخر لفن الصورة الذى تميز به لابروير ، وفيه يتمثل الكثير من وسائله الفنية التى أشرنا إلى بعضها .

وهذا المثال هو صورة الوصول الدعى ، يصل بحيله أكثر مما يصل بمواهبه ، ويعتمد على وسائل الجاه لدى سواه دون جدارة أو كفاية من ذات نفسه . ويذكر مؤلفو « المفاتيح » أن لابروير كان يقصد بتلك الصورة « دوق دى لافوياد » .

ويسمى لابروير صاحب هذه الصورة: « تليفون »؛ وفى التسمية نفسها سخرية لأن « تليفون » - أصلا - آلة تذهب بالصوت إلى بعيد ، ولكنه مجرد صوت ، وليس بصيت . ويذكر لابروير هذه الصورة فى موضعين من كتابه ، نترجمهما تباعاً :

« أو أنت صاحب فكر ومجد وبراعة وذوق وقوة تميز ؟ أو أستسلم للحدس والملق اللذين يعلنان فى جسارة عن جدارتك ؟ هما أمران مرييان أستنكرهما . أو أترك نفسى تغتر بالبريق الخادع لقدرتك وتعاليك ، مما يضعك فوق كل ما يفعل وما يقال وما يكتب ، ومما يردك صلب العود على المدح ، ويحول دون أن أنزع منك أقل استصواب ؟ وأستخلص من هذا - طبيعة - أنك من ذوى الخطوة والصيت والثراء الكبير . ما الوسيلة إلى تعرفك ، أى تليفون ؟ - لا يقترب المرء منك إلا كما يقترب من النار ، يظل على بعض المسافة منها ، ويجب أن تُنزع من أغطيتك (مما يحيط بك من أغشية الملحق والاعتماد على الجاه والصيت) ، وأن تختبر ، وأن تُقرن بنظرائك حتى يستطيع إصدار حكم صحيح حكيم عليك . الإنسان الذى أوليته ثقتك ، وهو من خلص خلصائك ، ومنه تستمد نصحك ،

ولأجله ترك سقراط وأرسطيد والذى تضحك معه ويعلو عليك بضحكه ، وهو أخيراً « داف » (عبد من العبيد فى ملهاة تيرنس التى عنوانها : أندريا) وهو معروف لى حق المعرفة : أفلا يكفى هذا لمعرفة أنك حق المعرفة ؟ » . (الفصل التاسع رقم ٢٠) .

- « يوجد أناس يرغبون من وراء عهتهم ، فيركبون متن الموج ، وتدفعهم القلاع فى بحر حيث يفشل الآخرون ويتحطمون ، ولكنهم يصلون وقد عقوا كل وسائل الوصول عقوقاً ، هم أناس مخلصون لأناس آخرين ، للعطاء الذين انقطعوا لعبادتهم ، وفيهم وضعوا أقصى آمالهم ، ولكنهم لا يخدمونهم ، بل يسلمونهم . وأهل الكفاية هم المحسنون عملاً الذين لا غنى للعطاء عنهم . ولكن أولئك المسكين لا غنى عنهم للعطاء ، ويعلوهم بياض الشيب لديهم ، ويمارسون فى خدمتهم لهم طيب الكلمات بدلا من طيب الأعمال ، ليتطلبوا على ذلك الجزاء . وينزعون مناصب خطيرة منهم بقدرتهم على تسليتهم إياهم ، ويرتفعون بما يأتون من الدعابات الدائبة إلى أعظم مكانة ، وأخيراً تنتهى بهم آجالهم ، فيرحلون إلى مستقبل لم يرحوه ولم يحشوه . ولا يبقى منهم على الأرض سوى المثل الذى حازوه فى الإثراء ، مثل مشثوم على كل من يريد أن يحتذيه ! ! ! » . (الفصل الحادى عشر رقم ٩٦) .

...

وفى هذا الموجز الذى قدمناه عن لابروير ، قد أشرنا إلى محافظته ومجاراته لعصره فى مواطن قليلة من آرائه ، مما يلتحق بما سماه سانت بوث « عقب أخيلوس » عند لابروير ؛ على حين عيننا بالكشف عن مواطن أصالته ، وعن كفايته ، وثورته على مثالب عصره

السياسية والإنسانية ، ورهف شعوره تجاه ما ترخر به الإنسانية والمجتمع من شرور ، وأنه يجد في جذارته وإخلاصه لفنه وإنسانيته عزاء عن كل شيء ، وبخاصة في وجه خصومه الكثر الذين عاشوا لأنفسهم في ظلام الأثرة وظلمها ، لا يخلصون لسوى منافعهم الخاصة . وقد كان لابرويير رائداً في كثير من آرائه الاجتماعية الثورية التي أشرنا إلى أهمها ، وبها سبق عصره ، كما سبق في بعضها عصر الثورة الفرنسية نفسه ، وتجلت أصالته إلى جانب إفادته من سابقه ومعاصريه . وقد أخلص لإنسانيته ، فعاش عصره وتجاربه ، وبقدر تعمقه فيهما تجلت آيات إنسانيته وخلوده . وهو مخلص لفنه بقدر إخلاصه لرسالته الإنسانية ، حتى رأينا من يراه في أسلوبه وصوره مثالا فريداً في الأدب الفرنسي كله .



ويضيق بنا المقال لو شرحنا وجوه تأثيره ، وذكرنا أسماء من حاكوه في الأدب الفرنسي والآداب الأخرى وحتى لو سردنا - مجرد سرد - الترجمات الكثيرة لكتابه في حياته وعلى توالى العصور ، فهذا يستحق بحثاً على حدة . على أن محاكاة لابرويير صعبة كما قال هو ، محذراً منها بعض من حاكوه من معاصريه ، ذلك أنه إنما يستملى قلبه ومزاجه وحدة شعوره .

ولقد لقي لابرويير نوعاً من الإنصاف لدى جمهوره وبعض المخلصين لإنسانيتهم وفكرهم من كتاب عصره ، فبلور إمكانيات متفرقة ، وغذاها مخلصاً ببذور نمت وترعرعت في القرن اللاحق ، فأثرت في الثورة الفرنسية التي كان له فضل في التهديد لها دون أدنى ريب . وقد أدى بذلك رسالته الإنسانية والفنية على خير ما استطاعه إنسان عاش في مثل ملابساته .